سفائن الصحراء

للدكتور أحمد زكى

هَلَا ، هلا ، هيّا إطوى الفَلَا طيّاً وقرّبى الحيّا للنازح الصبّ
هلا،هلا ، سيرى وامضى بتيسيرى طيرى بنا طيرى للماء والعشب
« شوق »

الجمل سفينة الصحراء ، اذا أنت ذكرت الصحراء ذكرته ، واذا ذكرته ذكرت الصحراء ، وما وجوده فى غير الصحراء إلا عبث ودعابة ، يزيد حسك بهما كلما تأملت خَلقه ، ودرست خُلقه ، وقرنت ما تجد من ذلك بطبيعة السواد من الأرض الذى يخرج اليه الجمل أحياناً ، أو بطبيعة المدن التى يضلّ اليها بحكم المصادفة الخاطئة والتوجيه الجائر ؛ فكما قد ينبو فى نظر الرجل العادى مرأى العمامة فى متحف اللوفر ، ومظهر القبعة فى الأزهر ، كذلك قد تضيق نفس عالم الأحياء بمنظر الخفّ على زلق المدينة ، ورؤية السنام يسير بين الوفير الكثير من طعامها

فى الصحراء معنى الجوع ، ومعنى الحر ، ومعنى المشقة والصبر ، وفيها معنى الجدب والقحط والجفاف . وفى الجمل تركزت كل هذه المعانى

أول ما يصفه الحيوانىّ ، يصفه بأن بضعه لك فى قائمة الحيوانات ، فتجده فى خانة المجترات ، وأميز ما تمتاز به هذه الحيوانات أن أمعدتها تنقسم الى أربعة أقسام ، أو ان شئت تتركب من أربعة أكياس

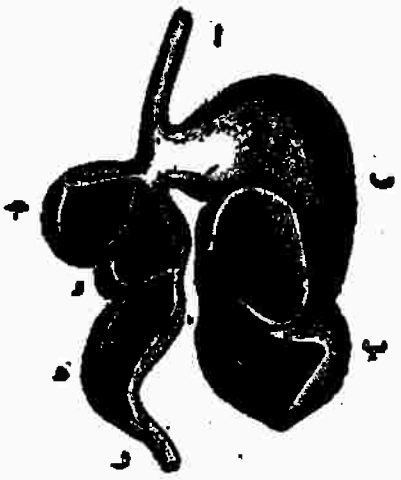

أقسام المعدة الأربعة فى الحيوانات المجترة

الكيس الأول وهو أكبرها ويسمى الكرش . واليه ينزل الطعام من المرىء (ا) بعد أن يكون قطّعه الحيوان بأسنانه تقطيعاً هيّناً هو دون المضغ بكثير ؛ والكيس الثانى ويسمى بالقلنسوة (حـ) وبغشائه المخاطى تُسَنّ من خلايا ذات أضلاع عدة ، وإلى هذه القلنسوة يخرج الطعام من الكرش تدرّجاً ، وفيها يتكوّر الى كرات ليست بصغيرة الحجم تندفع الى أعلى فى مرىء الحيوان الى فمه فيأخذ فى مضغها حتى تصير عجينة لينة ؛ وحركة اندفاع الطعام هكذا حركة طبيعية لا كحركة القىء . فاذا تم المضغ بلعه الحيوان فذهب الطعام هذه المرة الى الكيس الثالث ويسمى بذى اللفائف (ء) ذلك لأن حائطه به ثنيات مستطيلة تشبه أوراق الكتاب وهو مفتوح ، ومن ذى اللفائف يخرج الطعام الى الكيس الرابع واسمه الانفحة (ه) وفيها يحدث الهضم الحق

ولن تستعيد الأمر إلا بوحدة تقرب نائيهم وتنسيهم الإصرا
لعمرىَ ما أزرى بنا غير جهلنا حقيقة هذا الدين أو روحه الكبرى
وإكبارنا منه القشور وهجرنا لبابا وروحا ما أساغ لنا هجرا
لعمرىَ ما الاسلام إرسال لحية ولا صلوات تُنتقَى للريا سِترا
ولكنما الإسلام مجدٌ . وعزة تباعُ الدماء القِيحَ والأنفسَ الغُرّا
فدونكمُ القرآنَ دستورَ مجدكم تصولوا على الدنيا بعزته كِبرا
تربوا به واسقوا العقائد روحه وروا عليه النشء وابغوا به النصرا
صِلوا بين أرواح الشباب وبينه ولا يكُ حظ القارئ الطىَّ والنشرا
إذن يعلموا أن الجهاد فريضةٌ وأن سنام الأمر أن تفدِىَ الأمرا
وأن أخا الإسلام ليس بمسلم إذا ملّكَ الأعداء من أرضه شبرا

(الجامعة المصرية) عبد الحكيم عابدين الفيومى

على وجهه المألوف فى الحيوانات الأخرى ؛ فى الانفحة تنفرز العصارات الهضمية ، وهى التى تستخدم فى تجبين اللبن على ما هو معروف

فانك تجد فى تركيب معدة المجترات ، ومنها الجمل ، ان صانعها خلقها وفقاً لحاجاتها وملاءمة لطور معيشتها ، فالكرش الكبير الذى يملأ جانباً عظيماً من البطن يقذف اليه الحيوان بالطعام الأخضر الذى يقتطفه من الشجر قذفاً ، اما على عجل لأنه يخشى أن ينزل عليه عدو من أعدائه المفترسة ، أو اختزاناً له كى يعود اليه عند حاجته للطعام . فاذا هو ذهب الى أمنه ، أو جاءته شهية الطعام عمد الى هذا المخزون فأكله من جديد . والأكل أوله المضغ

أما الماء فانك واجد فى معدة الجمل خلايا عديدة كالجيوب ، واقعة فى جدرانه ، بها الماء ، وعليها أغطية من العضل تنسد وتنفتح عند الحاجة

وتنتهى قوائم الجمل : رجلاه ويداه ، بأصبعين ككل المجترات ، كالمعز والأبقار والوعل والغزلان . الا أن هذه الأصابع تنتهى فى هذه بأظلاف تساعدها الآن أو ساعدت آباءها بالأمس على تسلق الصخور والجبال . أما فى الجمل فينتهى الأصبعان بوسادة بها رخاوة وبها طراوة هى خير الأحذية للسير السريع الهين فوق الرمال لا سيما الوعثاء منها . والفيل اذا مشى فى الرمل فقد حياته فيه ، والحصان لا يلبث أن تُنهك قواه . كذلك حال ربيب المدينة اذا هو خرج بحذاء ذى كعب عال (أو الأولى ربيبتها) . والسيارات تغوص فى الرمال ، ثم تدور عجلاتها وتدور فلا تزيد فيها الا غوصاً . إلا اذا هى شابهت الجمال فاحتذت أخفافاً ، وتلك بالونات جديدة صنعت حديثاً قطرها تسع بوصات وضغط هوائها تسعة أهواء فهى عريضة رخوة . وقطر البالونات العادية نصف هذا القطر ، وضغطها ضعف هذا الضغط أو ثلاثة أمثاله

والجمل يحمل غذاءه فوق ظهره ، حملته الطبيعة إياه ، واختزنته تحت جلده حيث لا يصل اليه سواه : هذا سنامه ، وهو كتلة كبيرة من الدهن تجىء بمجىء المطر والعشب وتذهب بذهابهما ، وهى تزيد وتمتلئ بهما ظهره وتتخذ شكلاً أقرب ما يكون إلى الهرم الرباعى ، والجمل معشب مرتوٍ هانئ ، فاذا خرج الى الصحراء على سفر طويل تجهد ، فأعوزته الخضرة والماء ، رجع الى ما على ظهره ، يحرق منه لغذائه ، ويصمد به لغلبة الجوع حتى يذهب كله ويخلو منه جلده . ولكنه لا يلبث أن يعود من سفره حتى يأخذ فى الادخار من يوم النعيم والوفرة ليومه العبوس الآخر ، فيثقل بالدهن ظهره ، ويشتد عليه جلده . والأعرابى قبل الترحل الطويل يمتحن سنام راحلته كما ينظر ذو السيارة فى خزان بنزينه ؛ والحيوانات الثديية الأخرى تدخر الدهن ، ولكنه يتوزع على كل جسمها . كذلك تدخره الحيوانات التى تنام طول شتائها ، وتصحو فى الربيع لتأخذ مع الأحياء نصيبها من العيش وطيب الحياة ، وتدخر من الدهن لحين تنام مرة أخرى

والجمل له جسم ضخم ليس فيه جمال كثير ، تحمله قوائم طويلة تتراءى كأنها تعجز عن حمله ، ولكنها غاية فى الصلابة . وعظام هذه القوائم فوق متانتها بيضاء ناصعة حتى ليستعيض بها الهنود فى شمال الهند عن سن الفيل فى تلقيم بعض مصنوعاتهم . وطال الجمل لينال الشجر فبعد عن الأرض ، فكان لا بد له من طى قوائمه لينالها . وهو حين يبرك على الأرض يبرك على كتل خمس متصلبة فى جسمه يقال لها الثفنات ، واحدة فى صدره واسمها السُّمدانة ، واثنتان فى ركبتيه ، واثنتان فى أصول فخذيه . والثفنات تولد مع الجسم ليستتم به خلقه كالأذن والعين

وللجمل رقبة حنواء طويلة تحمل فى أعلاها رأساً صغيراً ، لا يحمل القرون التى هى من خصائص المجترات ، وله عينان تجلاوان ناعستان وله أنفان يغلقهما إذا شاء ويفتحهما

رأس جمل

ذا شاء ، وفضل هـذا ظاهر فى الريح السافية ؛ وفتحتا أنفه ميدتان بعداً كبيراً عما بداخلهما من غشاء وغدد مخاطية ، فهى لا تتحلّب مخاطا كالبقر وسائر المجترات . كذلك تطول شفته العليا وتتدلى على شفته السفلى فتحجبها أو تكاد . وشفته العليا مشقوقة شقين كالأرنب يحركهما أو يحرك أحدهما على هواه وهو يأكل حتى كأنهما يدان

وغذاء الجمل فى مواطنه الأولى أفرع الشجر وأوراقها ؛ وهو يأكل الشوك ولا يبالى ، ويأكله دون أن تدمى شفتاه . وهو يأكل الحب والتمر ، ولـكنه لا يستغنى عن الأخضر من الطعام . وله صبر على الجوع والظمأ ، فهو يقضى أياماً قد تطول إلى العشرة دون طعام ولا شراب . وقد يقضيها حاملاً المعهود من أثقاله . وقد يحدث كثيراً أن يفرغ الماء من القافلة فتعقر الجمال طلباً للماء الذى فى أكراشها . وللابل إحساس غريب بالماء تشمه من بعيد ؛ كثيراً ما نجّت القوافل بسببه ، وقد يحدث أن يأبى على الناقة صاحبها فلا يفهم معنى تشبّثها باتجاه خاص فى الصحراء فتقطع الرسن وتركب رأسها ، فاذا بلغت الماء كرعت منه لأمسها ويومها وغدها

(الجمل فى الحرب)

والأعراب تشرب من الأبل لبنها ، وهو بالغ فى دسمه ، وتأكل لحمها ، وتلبس من وبرها . ولـكن الخدمة الـكبرى التى أداها الجمل للانسانية من قديم هى وصله لأقطار فصلت بينها قفار كالمحيطات ما كان لغير الجمل أن يجتازها . فأثره فى تجارة الأمم العتيقة كبير . وقد كان وحده وصلة ما بين الشرق والغرب

والجمل إن كان فى جسمه القدرة على الحمل ، ففى خلقه الأناة والصبر . يكتسبهما ولادة وبالمران . وهو برغم تفننه من أغبى الحيوانات . أو لعله لغبائه كان نافعاً ذلولاً صبوراً ، وإنك تجد هذا فى الناس . وهو لا يألف صاحبه ألفة الحصان والكلب . وهو كالبدو يكره البحر . وأكثر التدبيات إذا ألقاها الرجل فى الماء وجد لديها من طبيعتها فهماً للعوم أو بعض فهم . أما الجمل فاذا غُصب على السير فى ماء غير محمل كالنهر فقدت رجلاه الأرض لم يحاول أن يعوم ، وإنما يدور جسمه ويسلم نفسه للغرق

والجمل على صبره ذو غضبة منكرة ، وهو حقود ذكور . حكوا أن جملاً كان يساق فى إدارة عصارة للزيت فضربه سائقه ضرباً موجعاً . ومضت أشهر بعد ذلك ، فظهر كأن الأساءة انتُسيت . وفى ليلة قمراء جاء الجمل يتلصص الى حيث يرقد السائق فوجد ما يشبهه وهو نائم فانقض عليه بكلكله وأخذ فى الثياب تمزيقاً يحسب الرجل فيها ، فلما فرغ تحدث اليه الرجل من بعيد ، فاغتاظ الجمل اغتياظاً شديداً ، وغضب لخيبته غضبة نكراء ضرب فيها الحائط برأسه ضربة أردته قتيلاً

أحمد زكى

ظهرت الطبعة الجديدة لكتاب

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال (لامرتين)

مترجمة بقـــلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن « الرسالة » والثمن ١٢ قرشاً